أوراق إستراتيجية

الموقع الإستراتيجي الإيراني

قام فريق دراسة العراق (ISG) بإصدار تقريره إلى البيت الأبيض، تقرير طال انتظاره ـ ـ و أصبح حتى الآن الأكثر تعرضاً للانتقاد كما تم تلقيه بفتور.
يسعى الرئيس جورج دبليو بوش حالياً للحصول على تقويم من جهات رسمية أخرى لإعداد استراتيجية جديدة للعراق، والتي سيتم الإعلان عنها في كانون الثاني من عام 2007. ومن المرجح بأن الأفكار ووجهات النظر التي تم جمعها من البنتاغون ووزارة الخارجية وغير ذلك سوف يتم وضعها إلى جانب المقترحات الـ79 للجنة دراسة العراق والتي قامت بطرح التحديات الدبلوماسية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط أكثر مما بيّنت الطريقة المنطقية لعمل القوات المسلحة الأمريكية.
إحدى أهم هذه المقترحات التي تقدمت بها لجنة دراسة العراق والتي بدت إدارة بوش ـ ولو ظاهرياً ـ معارضة لها بشدة: إشراك إيران مباشرةً في المفاوضات. هذا الأمر بالكاد شكل مفاجئة لأحد. حتى لو لم تكن أهمية إيران بارزة في أية معادلة إستراتيجية مختصة بالعراق منذ الفترة التي أعقبت انتهاء الغزو أو حتى قبلها، وذلك لعوامل جيوسياسية وبسبب الأداء الإيراني، فإنه من المؤكد أنه كان هناك تسريبات كافية لما كانت ستقوله هيئة مستشاري بيكر-هاملتون من أجل تحضير الرأي العام الأمريكي للتحرك في هذا الاتجاه. وبالطبع، إن الإدارة الأمريكية نفسها قد دخلت ومنذ مدة في مفاوضات مع إيران عبر قنوات غير معلنة هدفها تشكيل مستقبل العراق ـ بالحد الأدنى، إلى أن تم نقض اتفاق سياسي في الوقت الحرج بداية الصيف.
ومن وجهة نظر سياسية، فإنه من الواضح لماذا صدت الإدارة المقترحات القاضية بأن تقوم الولايات المتحدة بمد يدٍ دبلوماسية إلى إيران التي _ وبشكلٍ أساسي على لسان الناطق باسم الحكومة، الرئيس الإيراني محمد أحمدي نجاد ـ قالت وفعلت القليل من أجل كسب ود العالم، بينما قامت بالكثير من أجل تسليط الضوء على ضعف موقف الولايات المتحدة.
أما بالحديث من وجهة نظر جيوسياسية، فإنه أيضاً من الواضح لماذا فقدت الولايات المتحدة أية فرصة حقيقية على صعيد هذه القضية. الخيار الأفضل لواشنطن هو دمج الدبلوماسية مع الإستراتيجية العسكرية (التي تم مناقشتها سابقاً) والتي يمكن لها أن تفتح الباب لتخفيض عدد الجنود بشكل كبير. ولكن إشراك إيران، وبغض النظر عن مساوئ هذا الأمر، فإنه جزء لا يمكن تفاديه من المعادلة.
لذا، فإنه من المفيد النظر إلى المسألة من المنظور الإيراني. إن السترة التي وجدت الولايات المتحدة نفسها مقيدة بها الآن لم توجد في ليلةٍ وضحاها، وإنما خلال سنوات من التبدل المتأني. إن الجمهورية الإسلامية الآن تشد أنظار العالم إلى موقعها القوي في المنطقة، ولكن يوجد أيضاً بعض القضايا الداخلية التي تشغل بال قياديي النظام والتي تحتاج لأن تُدار بحكمة إذا كان يُراد الحفاظ على هذه القوة.

الإستراتيجية الإيرانية

إن إيران تناور منذ سنوات لتحمي بعض مصالحها في المنطقة. بالدرجة الأولى، بالطبع، حماية أمنها القومي، والذي كان يشكل إسقاط نظام صدام حسين في بغداد شرطاً أساسياً لها. فمن خلال إنشاء حكومة موالية (أو على الأقل محايدة) يسيطر عليها الشيعة في بغداد، تستطيع إيران أن تحمي هدفها الأساسي بما يختص بالأمن وأن تكون سائرة باتجاه تحقيق هدف ثانوي ومطلوب أيضاً وهو: السيطرة الإقليمية.

لذا فإن الإستراتيجية الإيرانية بدأت بالظهور منذ اللحظة التي سقط فيها تمثال صدام حسين في بغداد عام 2003، وتمحورت حول صياغة الأحداث في المنطقة وبشكلٍ أساسي الرؤى الخارجية لإيران وقيادتها. التكتيكات الأساسية التي استُخدمت هي تبديل مسار الأحداث السياسية في العراق، تأكيد صريح على برنامج إيران النووي، استخدام عبارات خاطئة وبمهارة (في بعض الأوقات، يبدو جنونياً) من قبل أحمدي نجاد، تحريك أذرعتها الإقليمية، وفوق كل ذلك، الصبر. وقد قمنا باستكشاف الكثير من هذه التكتيكات بنحوٍ مفصّل سابقاً، ولكن سوف نلخصها هنا لأن النظر إلى الإستراتيجية بشكلٍ كامل من الأهمية بمكان.

الأسلحة النووية والوهم الإستراتيجي

لنبدأ بالجزء الأقوى من الإستراتيجية (على الصعيدين السياسي والعسكري): البرنامج النووي.
من الواضح أن إيران استخدمت هذه المسألة كعنصر مساومة في المفاوضات عبر القنوات غير المعلنة بشأن العراق. عوضاً عن السعي سراً في برنامجها النووي - والذي يُعتبر الطريقة المنطقية فيما لو كان الحصول على أسلحة نووية هو فعلاً الهدف الأساسي لإيران في البداية - ولكن الإيرانيين تعمدوا الإعلان عن تقدمهم في المجال النووي. حلفاؤهم في السياسة والطاقة في موسكو وبيجينغ دافعوا عنهم على الدوام بالنحو الذي يضمن فتور القضية النووية في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. كما عمدت إيران إلى التصعيد في خطابها كلما بدأت التطورات السياسية في العراق تأخذ منحىً غير مؤاتٍ -- بينما كانت تبقى بعيدةً عن الخط الأحمر (الخط الذي بتخطيه يُتوقع من الولايات المتحدة وإسرائيل التصعيد من ضرباتها الدفاعية).
هذا التكتيك ساعد على تشكيل تصوّر حول إيران كقوة لا ينبغي الاستهانة بها، تاركاً واشنطن وحلفائها في حالة من الإرباك في المفاوضات حول العراق. وما هو مهم، أن الأسلحة النووية لم تعد تبدو كتكتيك لذر الرماد في العيون، وإنما كهدف نهائي بذاته لطهران.
وما يرتبط بشدة بهذا الأمر هو الصورة الانتخابية لأحمدي نجاد، الذي بات، عن تصور وتصميم وبدقة، معروفاً في أذهان الناس كمجنون تام. الشخص الذي يكاد لا يكون معروفاً، رئيس بلدية طهران الشعبي، أصبح تحت الأضواء أثناء الانتخابات الإيرانية، صيف عام 2005. من قبل أن يستطيع العالم حتى من تكوين تصوّر عنه، بدأ بالتهديد بإزالة إسرائيل عن الخارطة، ونعت المحرقة اليهودية على أنها كذبة كبيرة وما إلى ذلك. وكما أظهرت تجارب كوريا الشمالية في استراتجيتها المجنونة، المخيفة، والمعرقلة؛ دولة من ناحية ضعيفة -- يرأسها زعيم ثائر يمكن أن يصل به جنونه إلى إطلاق بعض من الأسلحة النووية التي يمكن للدولة أو لا يمكن أن تكون فعلاً تمتلكها -- ولكن يمكنها أن تحصل على امتيازات، ما لم نقل الاحترام، من قبل باقي العالم. وفي حالة إيران، فإنها بالتأكيد جعلت إسرائيل والولايات المتحدة تفكر مرتين إذا ما كان عليها أن تغامر عسكرياً فيما يتعلق بالجمهورية الإسلامية.

الأذرع الإقليمية

لقد أظهرت إيران كذلك براعتها في استخدامها لأذرعتها العسكرية في المنطقة.
فإن دعم إيران المالي، الأيديولوجي، السياسي، والعسكري لحزب الله يبني قاعدة شعبية قوية لها بين سكان الجنوب ذات الأغلبية الشيعية والفقيرة. منذ انسحاب إسرائيل من لبنان عام 2000، تُركت مجموعة المقاتلين الشيعة تذوي -- مستخدمةً إثارة مشكلة الحدود مع إسرائيل كأداة للحفاظ على حضورها. ولكن أثناء الصيف، بينما كان العالم مصوباً اهتمامه باتجاه العراق، عاد حزب الله هادراً إلى الحياة في صراع تجاوز المناوشات على الحدود.
يوجد سبب للاعتقاد بأنه كان لإيران اليد في إشعال فتيل هذا الصراع. في أوائل تموز، عندما بدأت الصواريخ البعيدة المدة تسقط على حيفا، أشارت مصادر من داخل حزب الله لستراتفور بأن القصف فاجأهم -- ما يدل على أن المسألة التي أدت إلى تلك العواقب الغير المقصودة كانت أبعد من مسألة خطف روتيني لجنود إسرائيليين. بالتأكيد، إن قوات حزب الله تلقت ضربة عنيفة أثناء صراع الـ 34 يوماً، ولكن النقطة الأساسية والمهمة هو أنها نجحت في مقاومة القوات المسلحة الإسرائيلية.

هذه النتيجة قدمت فوائد بعيدة الأمد لكلٍ من إيران وحزب الله. على النطاق الضيق، جلب ذلك مستويات جديدة من الدعم لحزب الله كما خلق حس جديد من الثقة بالنفس داخل هذا التيار ـ ـ الذي يقوم اليوم بتوسيع نفوذه السياسي من خلال تظاهرات حاشدة في قلب بيروت، هدفها إسقاط الحكومة التي يرأسها خصومهم. وعلى النطاق الواسع، فإن نتائج الحرب تركت إسرائيل في وضع سياسي وعسكري مشلول ـ ـ ما زوّد إيران بمساحة إضافية للمناورة السياسية داخل المنطقة.
بالإضافة إلى حزب الله، فإن إيران بقيت على تماس قوي مع أذرعتها في الكويت والبحرين ـ ـ وهو تذكير هادئ للدول العربية السنية في المنطقة بأن إيران لا زالت ممسكة بوسائل زعزعة استقرار جيرانهم، كما فعلت بجيران إسرائيل، فيما لو دفعتها الظروف لذلك. إن تصاعد التأثير الإيراني في المنطقة وضع الأنظمة العربية في موقع الدفاع، حتى أن البعض منهم بدأ يتساءل حول الحكمة من الإستراتيجيات التي تعتمد على قوة الولايات المتحدة العسكرية لحماية مصالحها. إذاً لهذا السبب تقوم المملكة العربية السعودية الآن بالتلميح بأنها سوف تنهض لدعم المتمردين السنة في العراق، كما قامت لجنة التحالف الخليجية بإعلان خططها لإطلاق برنامج نووي مشترك (بهدف إنتاج الطاقة السلمية على حد زعمهم). تفتقد الدول السنية لقدرات عسكرية خاصة بها، ولكنها سوف تصرخ بأقصى ما أمكنها لجعل الولايات المتحدة تسمع بوضوح بأنها لن تقف مكتوفة الأيدي بينما تقوم إيران بإعادة توزيع موازين القوى في المنطقة لصالح الشيعة.

العراق: مركز التجاذب

كل هذه التكتيكات، بالطبع، تقع على هامش القضية الأولى والجوهرية: العراق. إنه هناك (في العراق) حيث سياسة إيران التغييرية، استخدامها لأذرعتها، وصبرها الشديد، يبرز ـ بينما ضعف موقع الجنود الأمريكيين والرئيس يزداد وضوحاً يوماً بعد يوم. ومع ازدياد ثقتها في المنطقة، يبدو أن إيران أصبحت أقل ميلاً للقبول بمجرد حكومة وديعة أو محايدة في بغداد، وإنما تطلب السيطرة والنفوذ.
كما كان متوقعاً فإن شهر تشرين الأول انتهى لأن يكون شهراً مميتاً للقوى المسلحة الأمريكية في العراق، مع وجود إيران التي تقوم بتزويد الهجمات التي تشنها أذرعتها العسكرية الشيعية هناك. هذه الجماعات المتمردة المدعومة من إيران هي عبارة عن تشكيلة من المقاتلين الذين تلقّى الكثير منهم التدريب على أيدي جماعات من حزب الله. كما قامت إيران بتوظيف عناصر عنيفة تابعة لتيار القائد الشيعي مقتدى الصدر، للمساعدة في هذا المجال. التوقيت في تزايد عدد الإصابات بين الأمريكيين أثرت في الدورة السياسية الأمريكية ـ ـ كما توقع الإيرانيون ـ ـ كما ساهمت في التخريب على الجمهوريين في انتخابات الكونغرس، شهر تشرين الثاني. في الوقت نفسه، إن الأصوات المطالبة للإدارة الأمريكية في تغيير أدائها أو في وضع سياسة حقيقية للعراق، رفعت من وتيرتها.
ومن أجل التماشي مع هذه الإستراتيجية، فإن واشنطن الآن تشعر بضغط من جميع الجهات لإشراك طهران ـ ـ والمهم في ذلك، أنه لم يكن على الإيرانيين أن يقدموا أي تضحيات ليصبحوا في مثل هذا الموقع.

الوضع الداخلي

ليس المقصود هنا بأن الإيرانيين في مأمن، بالطبع ـ ـ فإنه من المهم التأمل في الوضع الداخلي تحديداً.
في المرة الأولى التي أتى بها أحمدي نجاد إلى الحكم في حزيران 2005، انطلقت تظاهرات طلابية منددة برئاسته في السادس، الثامن والحادي عشر من كانون الأول في طهران. وبالرغم من أن عدد المتظاهرين انخفض من 4000 إلى 50 خلال أسبوعٍ واحد، ولكن يبقى أن نفس وقوع مثل هذه التظاهرات أمر ذات دلالة. مثل هذه التظاهرات نادرة داخل إيران، وهي تنبئ عن أن تيار تحتي معارض للنظام الديني المتشدد لا زال موجوداً. لم يعد للسياسيين المعتدلين صوتاً في الحكومة منذ أن خسر الرئيس السابق علي أكبر هاشمي رفسنجاني فرصته الانتخابية السنة الفائتة، ويبدو أنهم الآن جاهزون ليستعيدوا حضورهم مرة أخرى.
نقطة مفصلية مهمة سوف تكون في الخامس عشر من كانون الأول، عند انتخاب رؤساء البلديات وأعضاء مجلس الخبراء. هذه الانتخابات يمكن أن تؤدي إلى تآلف للمشاركة في السلطة بين المحافظين البراغماتيين التابعين لرفسنجاني وحزب المحافظين المتشددين لأحمدي نجاد. وبالرغم من أنه غير متوقع أن يحدث تغيير في السياسة الخارجية الإيرانية في الوقت المنظور، فإن أعضاء مجلس الخبراء الجدد سوف يساهمون بشكل قوي في تحديد قيادة النظام المستقبلية: فإن

المجلس لا يعين فقط القائد الأعلى للجمهورية وإنما يشرف على أدائه وحتى أن لديه الصلاحية لفصله من منصبه. وبالنظر إلى أن غالبية أعضاء المؤسسة الدينية في إيران أصبحوا مسنين ويعانون توعكاً صحياً، بما في ذلك القائد الأعلى آية الله علي خامنئي، فهناك احتمال للانتقال إلى جيل جديد برعاية الأعضاء الجدد لمجلس الخبراء، الذين تمتد فترة حكمهم لمدة 8 سنوات.
حالياً، إن الحكومة تواجه معارضة من أقليات إثنية مختلفة ـ ـ بما في ذلك عرب الأهواز في الجنوب الغربي، الأكراد والأذربيجانيين في الشمال الغربي، البلشافيين في الجنوب الشرقي، والأتراك في الشمال. القادة الإيرانيون متنبهين جيداً لخطر أن يتم استخدام هذه الجماعات المنشقة من قبل المخابرات الأجنبية لزعزعة النظام في إيران.
بأخذ هذه الملاحظات بعين الاعتبار، فإنه من غير المفاجئ أن تكون مناورات إيران في الأشهر الستة الأخيرة تحديداً ملحوظة. فإن النظام لم يكن فقط يتحرك بذكاء للمساهمة في واستغلال فترة الضعف التي تمر بها الولايات المتحدة ولكن كان يعمل وهو مدرك بأنه لا يمكن لهذه اللعبة أن تدوم إلى الأبد. الوقت يمر، والوقت لتقوم إيران بتوظيف رصيدها في المنطقة هو الآن.

الخطوات التالية:

من الواضح أن التركيبة الإثنية للحكومة في بغداد تشكل مسألة جوهرية لكل من واشنطن وطهران.
إحدى الخيارات التي هي محل تأمل حالياً لدى الإدارة الأمريكية تتضمن إجراء تعديلات على قيادة الحكومة العراقية ـ ـ ما يعني إقالة رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي وإقصاء الرموز الشيعية الموالية للصدر. بالرغم من أن بوش أكد للعلن على أن المالكي هو "الرجل الصحيح ليقود العراق (مثلما أصر بأن دونالد رامسفيلد كان "الرجل الصحيح" لقيادة وزارة الدفاع)، بدأ المالكي يخسر شعبيته بين القادة السياسيين والعسكريين الأمريكيين الذين يرونه بأنه غير فاعل وغير آبه لحل الميليشيات الشيعية. التسريبات من مذكرة مستشار الأمن القومي، ستيفن هادلي، والتي انتقدت المالكي بشدة مباشرةً بعد اجتماعه ببوش في الأردن، عمان، يمكن أن تكون إشارة إلى أن الإدارة تسعى إلى استخدام استراتيجية الشد والإرخاء لإعطاء الانطباع بأن المالكي هو الرجل الغير مناسب لهذه المهمة في النهاية.
المالكي هو عضو في حزب الدعوة، والذي يأتي بالدرجة الثانية من حيث التأثير داخل الجبهة السياسية الشيعية في العراق ـ ـ متأخر على المجلس الأعلى للثورة الإسلامية، وهو الحزب الأكثر وفاءً وتأييداً لإيران. لذا ومن أجل مواجهة تأثير المجلس الأعلى للثورة الإسلامية، كان على المالكي أن يحرك الأحزاب الشيعية المختلفة ضد بعضها البعض من أجل أن يدعم موقف حزبه.
فيما لو تمّت إقالة المالكي، يبدو أن الشخص الأوفر حظاً سيكون رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية، عبد العزيز الحكيم، الذي التقى بوش في الخامس من كانون الأول في البيت الأبيض. ولكن فيما إذا أراد الحكيم أن يحتفظ بموقعه كصاحب اليد الطولى في تعيين رجالات السلطة بين العراقيين الشيعة وأن يتفادى التحديات المحتومة التي سيواجهها رئيس الوزراء، فإن عادل عبد المهدي ـ عضو أعلى في المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وواحد من النواب الإثنين للرئيس العراقي ـ هو المؤهل ليشغل هذا المنصب.
إن تعيين رئيس وزراء من المجلس الأعلى للثورة الإسلامية سوف يغرس الحكومة العراقية في المعسكر المؤيد لإيران، ولكن ليس بالضرورة أن تقوم واشنطن بتضييع هذا الأمر من يدها. بوجود شخص مثل الحكيم أو المهدي في السلطة، فإن الحكومة تستطيع بذلك أن تضع الميليشية الشيعية الأكبر والأكثر حنكةً _ جماعة بدر الخاصة بالمجلس الأعلى للثورة الإسلامية ـ تحت السيطرة. ولكل من واشنطن وطهران المصلحة في وضع رئيس شيعي قوي في سدة الحكم، قادر على جعل التناحر المذهبي الذي يبثه الشيعة، تحت السيطرة.

ولكن لهذا المخطط سلبياته. بخلاف تكتل الصدر، فإن المجلس الأعلى للثورة الإسلامية لديه خطة ضامنة لقواته المسلحة: إن سيطرته على الحكومة سوف تمكّنه من دمج جماعات بدر بسهولةٍ أكبر في قوى الأمن العراقية ـ وبالتالي النجاح في تهميش جيش المهدي التابع للصدر، الذي كان ولا زال المسؤول الأول عن الفوضى في بغداد. ولكن القوى المسلحة التابعة لجيش المهدي سوف تحرص على أن تطلق مقاومة عنيفة في وجه أي أتفاق من شأنه أن يهمّش أتباع الصدر في الحكومة.

ولكن من أجل إنجاح محاولة إقالة الصدريين، فإن بعض القياديين العراقيين والأمريكيين يتطلعون إلى تقوية موقع السنة في الحكومة من خلال نائب الرئيس طارق الهاشمي ـ القيادي الثاني في جبهة التوافق العراقي، الحزب السني الأكبر في الحكومة. تبقى مشاركة السنة في الحكومة هي شرط أساسي إذا ما أرادت الحكومة أن تحكم قبضتها على المتمردين من غير الشيعة في العراق. وبينما الضغط يزداد على الولايات المتحدة من أجل تغيير إستراتيجيتها في العراق، وأن تبتعد عن مسؤولية الأمن اليومية، وأن تدخل في محادثات جدية مع إيران، فإنه يمكن للتكتل السني في العراق أن يرى في ذلك الفرصة الأمثل لتثبيت موقعه في الحكومة من قبل أن تحظى إيران بسيطرة أكبر على الوضع. إذاً، إن سفر هاشمي إلى واشنطن والتقائه ببوش في مطلع هذا الأسبوع لم يكن مصادفةً ـ ثلاثة أسابيع قبل الوقت المقرر ـ وفقاً للإشاعات التي بثها تآلف المشاركة في السلطة الذي يضم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية.
المشكلة الدبلوماسية التي تواجهها الولايات المتحدة الآن تأتي بكلمات الرئيس جون كندي إلى الذاكرة: " لنتجنّب الدخول في أية مفاوضات بدافع الخوف. بل لنتجنب الخوف من الدخول في أية مفاوضات." في هذه المرحلة، إن بوش يعلم بأنه لا يمكنه التفاوض مع إيران بدافع الخوف، ولذا فإنه يؤخر المفاوضات بالقيام بالتجوال للحصول على مقترحات حول الإستراتيجية العسكرية وبالتأمل ملياً حول كيفية إصلاح القيادة السياسية في بغداد.

من الواضح بأن إستراتيجية واشنطن لم تُحدد بعد ـ وكما أعلن فريق دراسة العراق، لم يتم استهلاك كل الخيارات. يمكن لصفقات سياسية جديدة أن تتشكل ـ ولكن كما يبين التاريخ، بأن الصفقات في بغداد تميل لأن تندلع شهبها النارية بشكلٍ أوسع عندما تنفسخ. يمكن لواشنطن أن تحاول تقليب الأوراق داخل الحكومة العراقية بطرق عديدة، ولكن في النهاية، سوف يكون من الصعب جداً على الإدارة الأمريكية أن تتجاهل بأن إيران تمتلك معظم الأوراق ومن غير المحتمل أن تنثني إلى الوراء أو تنهار.

Research Services Group
ResearchServics.Group@gmail.com